الهائلة التي حققها التحليل التفصيلي للنصوص . بيد أنه لا مفر هناك من الاعتراف بالحقيقة القائلة ان الدراسات الأدبية عامة ، والمنظرون الماركسيون الاميركيون على وجه الخصوص ، قد تحاشوا بذل المجهود الرامي الى سد الثغرة جدياً بين مستويات البنية القومية والتحتية على صعيد الدراسة العلمية التاريخية والنصوصية . ولقد بلغ بي الأمر في مناسبة أخرى ان قلت بأن المؤسسة الثقافية ــ الأدبية هي أرض محرمة . ذلك أن الاستشراق يحمل المرء على التصدي مباشرة لتلك المسألة ــ أي انه يقوده إلى الادراك بأن الامبريالية السياسية تحكم سيطرتها على حقل بكامله من الدراسة والتخيل وبمؤسسات البحث العلمي ــ وهذا على نحو يجعل من تجنبها ضرباً من المحال الفكري والتاريخي . ومع ذلك سوف تبقى هناك على الدوام آلية التهرب الخالدة والقائمة على القول إن باحثاً أدبياً أو فيلسوفاً ، على سبيل المثال ، تلقى تدريبه العلمي في الأدب والفلسفة على التوالي ، وليس في السياسة أو التحليل الايديولوجي . وبكلام آخر ، فان حجة الاختصاصي يمكنها ان تعمل بشكل فعال تماماً لكي تسد الطريق أمام المنظور الذي اعتبره أنا بمثابة المنظور الفكري الاكثر جدية .

يبدو لي هنا انه توجد إجابة بسيطة ذات شقين وينبغي اعطاؤها ، على الأقل فيما يتعلق بدراسة الامبريالية والثقافة (أو الاستشراق) . ففي المقام الأول ، إن كل كاتب من كتاب القرن التاسع عشر تقريباً (ويصدق الشيء ذاته ، تماماً على كتاب الفترات السابقة) كان واعياً تمام الوعي ــ وبشكل خارق للمألوف ــ لحقيقة وجود الامبراطورية : وهذا موضوع لم يدرس دراسة جيدة للغاية ، لكن الأمر لن يطول بأحد المختصين المحدثين في دراسة العصر الفيكتوري حتى يقر بأن الابطال الثقافيين الليبراليين أمثال جون ستورات ميل ، وآرنولد وكارليل ونيومان وماكولي وروسكين وجورج اليوت وحتى ديكنز كانت لهم آراء محددة بشأن العرف والامبريالية ، وهي موضوعات يسهل العثور عليها فاعلة في كتاباتهم . حتى انه يتوجب على الاختصاصي التعامل مع المعرفة القائلة ان جون ستورات ميل ، على سبيل المثال ، أوضح في كتابيه « **في الحرية** » و « **الحكومة التمثيلية** » بأن الآراء التي عرضها هناك لا يمكن تطبيقها على الهند (لقد كان موظفاً في وزارة الهند طيلة فترة لا بأس بها من حياته) ، ذلك أن الهنود كانوا متخلفين بدنياً ، إن لم يكن عرقياً .ويمكن العثور على النوع ذاته من المفارقة لدى ماركس ، كما أحاول تبيان هذا الأمر في كتابي . وفي المقام الثاني ، فالاعتقاد بأن السياسة على صورة الامبريالية تؤثر في انتاج الأدب والبحث العلمي والنظرية الاجتماعية وكتابة التاريخ ليس معادلا على الاطلاق للقول بأن الثقافة هي بالتالي شيء ذو شأن منحط أو سيء السمعة . بل على العكس تماماً : جل ما أسعى للوصول إليه هو القول إننا نستطيع تحقيق فهم أفضل لأنظمة الهيمنة المشبعة في مثابرتها وتحمليتها ، والثقافة أو الحضارة هي مثال لهذه الأنظمة ــ عندما ندرك بأن قيودها الداخلية المفروضة على الكتاب والمفكرين كانت **منتجة** ، وليس صادة من جانب واحد . ومن المؤكد ان هذه الفكرة هي التي كان يحاول غرامشي وكل من فوكو وريموند وليامز ، تبيانها والتدليل عليها بطرق مختلفة . إن كل صفحة أو صفحتين مما كتبه وليامز عن « استخدام الامبراطورية ومنافعها » في كتابه « **المسيرة الطويلة** » The Long March تخبرنا عن الغنى الثقافي في القرن التاسع عشر اكثر مما تخبرنا إياه مجلدات من تحليل النصوص وقد جاءت ثمرة العزلة والعمل الدؤوب[٩] .